



المتربة بعض البعر والروث . دجاجات هزيلة تنقب هناك
بمناقيرها . مرتّ مارتين وهي تحمل قفة في يدها .
حيته وهي تبسم . رد بتراخ . قالت :
- اليس عندك درس الآن ؟
- لا أشتغل في هذه الظهرية .
- مرّ عندنا هذا المساء . لقد جلب أندري زجاجات
جيدة من الخمر . ساهيء بايلا . هل تحبها ؟
- سأحاول أن أمرّ . اني احب البايلا كثيرا .

انصرفت مارتين . وقال الحاج :
- ان وجود هذه الثانوية انعم علينا بمثل هؤلاء
الناس . لم تكن نرى النصارى الا وهم عابرون من هنا .
لو عربنا التعليم ما راينا مثل هؤلاء الجميلات .
- اذهب الى الدار البيضاء وستشبع من رؤيتهن .
- آه ، الدار البيضاء . انها حلم يا سي عبدالكريم .
يقال ان فيها عصابات كثيرة . وحتى الفتيات هناك
يفتصبن الرجال . ماذا قالت لك تلك النصرانية ؟
- ليس ذلك شغلك .
- معك حق يا سي عبد الكريم .

أخذ يتلهم بالنظر الى الدجاجات التي تنبش الروث
والبعر بمناقيرها وهي تتقافز . لم يكن يحيط المكان
سوى بعض الحوانيت ، وخلفها دور شعبية مكتظة
بالكثير من الاطفال الصغار ، وخلف الدور المكتظة تفرقت
نوايل لخماسين ومستخدمين في البساتين . ومن غير
شك فان تلك النوايل هي الاخرى اكتظت حتى انها لم تعد
تتسع لاصحابها فلفظت بعضهم الى الخلاء .

أمسك عبد الكريم الجريدة من جديد واخذ يقلب
صفحاتها دون اهتمام . رفع رأسه فرأى قرويا يسوط
حماره بعصاه . لكن الحمار لا يابه للضرب . لقد رفض
ان يتحرك ، ان يتقدم . يحلو لعبد الكريم ان يجلس في
هذا الوقت ، عندما لا يكون عنده درس في الثانوية .
يشتر مع الحاج او يقرأ . ان ذلك على كل حال أفضل من
النوم . هناك بعض الاصدقاء لا يفعلون سوى ذلك .
ماذا يستطيع ان يفعل المرء في قرية صغيرة ، تبعد عن
أقرب مدينة بمائة وعشرين كيلومترا ؟ لقد اختار أحد
رفاقه في العمل الاغراق في الشرب . بعضهم اختاروا
مطاردة تلميذاتهم . أما هو فكان يقرأ وينام مع مارتين
كلما اتاحت الفرصة او تغيب أندري . ومع ذلك ، فقد
كان أندري يحبه ، وكانا يتناقشان باستمرار ، عندما

القت بنفسها من النافذة ، التي لم تكن بعيدة عن
الارض . وفي الخارج سمعها تركض وهي تنتحب . مدّ
عنقه من النافذة ، نظر اليها في غضب . اختفت في
الظلام البارد . بعد دقيقتين فقط أو أقل ستكون في
بيتهم . ستحكي لوالدها كل شيء . أغلق الرتاج . دار
في الغرفة وهو يفكر بعصبية . صرخ الطفل الصغير ،
فحاولت أخته التي تكبره بعامين أن تسكنه . نظر اليهما .
انهما يشبهان دمتين كهربائيتين . ورآها تنتف شعرها
وتصرخ : « ويلي ، ويلي ! » وتوجه الى النافذة لتلقي
بنفسها منها الى الخارج .

قال للحاج :

- هات كأس شاي .

طقطق الكرسي العتيق من تحته كما لو كان سيتكسر
على الفور . فتح الجريدة على الصفحة الثقافية وأخذ
يقرأ قصيدة لاحد اصدقائه . كل الاصدقاء أصبحوا
شعراء الا هو . قال ان طموحه أكبر من ذلك . انه
لا يتسرع في اختبار موهبته ، قد يختبرها بعد عشر
سنوات ، ربما تكون أنضج من جميع مواهب هؤلاء الذين
يكتبون . قال الحاج :

- سي عبد الكريم ، من أين تحصل على كل هذه
الصحف والكتب ؟

ضحك الحاج وأضاف :

- لو فتحت مكتبة هنا لكنك اغتنيت من سنوات .
- لمن ستبيع كتبك ؟
- لك وحدك .

أخذ عبد الكريم يرشف الشاي الساخن . يتتبع
أبيات القصيدة . يعيد قراءة الابيات والمقاطع « مثلك
لم أرَ واحدة أبدا . أنت أجمل من كومونة باريس . آه ،
عفوا . أنت أسخف من ثورة بو حمارة .. » . في الساحة

يشربان ، عن حوادث ماي ١٩٦٨ . وكيف ان أندري استطاع ان يحطم كثيرا من علامات المرور ، وان مارتين تمكنت هي الاخرى من احراق متجر كبير للعطور .

(- يا للايام الجميلة ! هل تذكرين يا مارتين عندما فجعنا ذلك الغضب ؟

- كانت اياما سعيدة حقا .

وقال عبد الكريم :

- ما أروع أن يفجر الانسان موروثه من الغضب ! هل تعرف يا أندري ، ان الغضب ليس حالة نفسية . ولكنه موروث تاريخي . انه خلاصة ماضى بأكمله .

- صحيح . لقد استطعنا أن نفجر جزءا من ذلك الموروث) .

ورأى عبد الكريم الرجل القروي وهو يشدّ حزامه . ثم انحنى الرجل ورفع عصاه عن الارض . وعندما حاول ان يهوي على الحمار ، رفع هذا الاخير اذنيه وجرى الى الامام ، فركض صاحبه وراءه . وتخلّى عبد الكريم عن مشاهدة ذلك . ادخل اصبعين في الكأس وأخرج أوراق النعنع وأخذ يمصها . كانت لذيدة جدا . وهو يحب أن يفعل ذلك احيانا . تلك عادة تذكره بسنوات الطفولة ، عندما كانت والدته تأمره أن يفرغ البراد من النعنع وينظفه . كان يختلي بالبراد ويمص كل محتواه . كم كان ذلك النعنع لذيدا وحلوا !

ولقد احتفظ بهذه المادة حتى بعد زواجه . يحب ان يمارسها احيانا . وكانت الزوجة تقول : « انك لست طفلا صغيرا . اشتر لك مصاصة أطفال نطليها لك بالعلسل او بالمربي » . لم يكن يهتم لذلك ، بل يستمر في مصمصه أوراق النعنع وتقلها على الصينية . ربما كان عنده شعور بمضايقتها . لانها تحاول ما أمكن ان تمنعه من مسراته الصغيرة . تلك المسرات الصغيرة التي هي أساس سعادة الانسان . وكان يعتقد ان تلك الاشياء التافهة في نظر الناس ، هي من الاهمية بمكان بالنسبة للشخص الذي تصدر عنه . لقد تعود أن يحترم أبسط وأحقر سلوك انساني . ولعل ذلك هو الخيط الدقيق الذي فصل بينهما . لانها لم تكن تتفق معه في وجهة نظره تلك . والحت عليه صورتها . ففزت من النافذة ثم اختفت من امام عينيه ، واختفت أيضا من مخيلته . وظهر الطفلان يتقاذزان ويناديان عليه بصوت واحد . وراح يقول لنفسه انه قاس جدا بقدر ما هو عاطفي . وحاول أن يحطم هذا الاخذ والرد في رأسه . ليكن الانسان شجاعا ولو مرة واحدة في حياته ، باتخاذ قرار معين مهما بلغت تفاهته . ودفع الكأس فوق الطاولة . وقف واتجه نحو الحاج . دفع له ثمن الشاي . قال هذا الاخير وهو مشغول بتحريك زر المدياع :

- صافي سي عبدالكريم ! ستذهب عند النصرانية؟

- هل يهملك ذلك ؟

- نعم .

- عندما أكون معها في الفراش سانادي عليك .

وقال الحاج وهو يضرب صدره بكفه :

- الله الله ! كم أنت كبير القلب ! ان ظني لم يخطئ ،

فيك أبدا .

- سأتركك معها وسأنادي على الجيران . وسيرون

كيف ان رجلا قدرا مثلك استطاع أن يغوي امرأة في غاية الجمال .

- سينصبون لي تمثالا اذ ذاك ، وسيحترمني القاد

اكثر . سيعمل كل ما في استطاعه لانجاحي في الانتخابات القادمة . وسأصبح اقطاعيا كبيرا .

- هل ستسنانني ؟

- كيف أنسى قوادي؟!!

ضحكا معا . والتقت كفتاهما في الهواء . شدا على

كفي بعضهما بقوة . ونزلت دمعة فرح من عين الحاج . غادر عبد الكريم القهوة . أحس انه يعيش في فضاء هائل متخيل . ليست هناك بيوت ولا أشجار ولا طرق ولا فلاحون ولا نكنات عسكرية . هناك فضاء واسع فقط . الا انه تضايق منه . لقد كان مخيفا . فهو لا يستطيع ان يعيش في فضاء مثل ذلك ، لانه يبعث على التوتر والالم . كم كان يتحمل أشياء مماثلة وهو في سن معينة . الا انه الآن ، لم تعد له قدرة على التحمل . أبسط الاشياء تثيره . حتى ولو كان هذا الشيء منعه من مصمصه أوراق النعنع .

(- هل من السهولة التخلي عن هذين الصبيين ؟

انهما بريئان .

- أعرف ذلك .

- من أجلهما أرجو ان نستمر .

- لو فعلت شيئا بسيطا من أجل ذلك !

- لقد فعلت الكثير .

- أنت لم تفعل شيئا . يجب أن نفرق .

- لماذا لا تتحمل ولو قليلا من المتاعب مثلما يتحمل

باقي الناس ؟

- لم تعد لي القدرة . في السابق ، في سن معينة ،

كان بإمكانني ذلك) .

كانت القرية خالية الآن . الشمس فقط وكلب دلي

لسانه الاحمر وهو يلهث . مشى عبد الكريم تجاه باب مصبوغ بطلاء أخضر باهت . طرق الباب ، والتفت ليرى بعض التلاميذ الذين ربما تغيب أحد أساتذتهم ، يلعبون بالكرة . طرق الباب فخرجت فتاة صغيرة قدرة ، نظرت بعين واحدة بين الجدار والباب .

- قولي لابيك زجاجة واحدة كيفما كان نوعها .

- لا يمكن . لقد مرّ رجال الدرك أمس واحتجزوا

كل الزجاجات بأمر من القايد . لحسن حفظنا انهم لم يأخذوه الى السجن .

– قولي له سي عبد الكريم يريد ذلك . انا متأكد انهم لم يفتشوا البئر وانت تعرفين ذلك . لا تكذبي .
– لقد فتشوا كل شيء حتى البئر .
– لا تكذبي . انهم لا يعرفون ان في بيتكم بئرا .

اغلقت الفتاة الصغيرة الباب في وجه عبد الكريم . وعندما تأخرت عاود الخبط على الباب بدون جدوى لانها لم تفتح . انسحب وهو يشتمها بصوت مرتفع . تذكر بعض زملائه الذين يشربون أو يطاردون تلميذاتهم . في هذه القرية الصغيرة ليس هناك من اهتمام سوى السكر والزنى . انحنى عبد الكريم والتقط عدة أحجار . أخذ يطوح بها بعيدا . ثم تذكر ان هذا عمل لا يليق بأستاذ . لو رآه أي شخص لاعتقد انه فقد عقله . أرخى ذراعه فهوت قطعة الحجر الاخيرة بهدوء الى الارض . اذا كانت البئر قد جفت أو فتشها الدركيون فان هناك أندري ومارتين . ابتسم لنفسه . في اخرج الاوقات يستطيع أن يجد لنفسه مخرجا .

(– ان ما يعجبني فيك هو صمودك وعنادك .
– لست كما تدعين . ولكني فقط أعرف ما عمل .
– ولهذا السبب فاني لا أريد أن نفترق . نعمل من أجل اسعاد طفلينا .
– كان عليك أن تعملي لذلك في السابق . أما الآن فليس وقته) .

وقالت مارتين في المساء :
– ان ما يعجبني فيك هو عنادك .
– لقد جفت البئر أو ربما فتشها الدركيون .
– ماذا تقول ؟ اني لا أعرف عمّ تتحدث .
– ليس مهما . يبدو انك في حاجة الى ذلك . هل تتذكر زوجتك وطفليك ؟
– مثلما تتذكرين أندري الآن .
– ليس هناك أي وجه للمقارنة . بالنسبة لي فان أندري يعرف كل شيء .

تمدد عبد الكريم على ظهره . اقتربت مارتين وأخذت تمرّ بأصابعها على شعره . استلذ ذلك أول الامر ، لكنه في النهاية حرك رأسه وابتعد عنها . وقفت وذهبت الى المطبخ . احضرت شريحتي لحم . واستمرت تصب لنفسها الكأس تلو الاخرى . كان عبد الكريم يشعر انه ليس وحيدا في هذا العالم . لا بد وان نعثر على من يساندنا حتى ولو في زناينة . منذ انتقاله التاديبى الى هذه القرية . استطاع أن يتعرف على الكثير من الناس . يعتقد انهم يحبونه كثيرا . وحتى لو كان ذلك وهما فانه يرضيه . اذ كيف نستطيع أن نميز بين الوهم والحقيقة . اراد أن يقول ذلك لمارتين ولكنه تراجع . وسمع جرس الباب يرن . ليس أندري على كل حال . لكن ...

(– دع عنك الاوهام . نستطيع أن نتلافى كل ما فات ونعيش من جديد من أجل طفلينا .
– اني لا أتشبهت بالاوهام ابدا . لكني احبانا لا افرق بينها وبين الحقيقة .
– تلك هي مشكلتك .
– اعتقد انها ليست مشكلتي وحدي . انها مشكلة أي انسان . ستعرفين أنت كذلك هذا اذا ما تعمنت في الامر جيدا) .

سمع عبد الكريم اصواتا مرتفعة في الخارج . ميز منها صوت مارتين بصعوبة . أخذت الاصوات تقترب ، واصبح أكثرها حدة هو صوت مارتين . ثم أطلت عليه قائمة رئيس الدركيين . كانت مارتين خلفه تقول :
– ان هذا غير معقول .

قال الرئيس لعبد الكريم :
– تفضل . خذ معك الزجاجاة . انت متمم بالسكر والخيانة الزوجية .

وكانت مارتين تصرخ : – غير معقول ، عبد الكريم . ان هذا الدركي يريدني لنفسه . لقد حاول معي مرارا ! لم أر مثل هذا ابدا . غير معقول . يا له من بلد غريب !

الدار البيضاء

صدرت حديثا في طبعات جديدة

مؤلفات القاص المرافي

عبد الرحمن مجيد الربيعي

(رواية)

القمر والاسوار (رواية)

منشورات دار العودة - بيروت



الوشم (رواية)

الظل في الرأس (قصص)

وجوه من رحلة التعمب (قصص)

منشورات دار الطليعة - بيروت